

د. واتيكي كميلة

قسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات

جامعة عبد الرحمن ميرة- بجاية-

المحاضرة الأولى:

تحديد المفاهيم الخاصة

بالبحث في العلوم الإنسانية

1- المنهج:

جاء في "لسان العرب" إنّ المنهج والمنهاج هو الطريق الواضح، والنهج " بتسكين الهاء " هو الطريق المستقيم، وقد جاء في القرآن الكريم ﴿لَكَلَّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، وأضاف "المعجم الوسيط" على ذلك بالقول: الخطة المرسومة، ويعترف بأنها دلالة محدثة ومنه " منهاج الدراسة ومنهاج التعليم ونحوهما"، وأشار د. أحمد مطلوب في " معجم النقد العربي القديم " إلى أنّ المنهج هو الطريقة أو الأسلوب. والمعنى العام للمنهج هو الأسلوب الذي يقود إلى هدف معين في البحث والتأليف والسلوك.

ومصطلح المنهج في الانجليزية Method وفي الفرنسية Methode وفي اليونانية methodos يعني بشكل عام الطريق أو السبيل أو التقنية المستخدمة لعمل شيء محدد، أو العملية الإجرائية المتبعة للحصول على شيء ما أو موضوع ما. كما استخدمت لتشير إلى طريقة البحث عن المعرفة والاستقصاء.

إنّ كلمة منهج ليست مصطلحا أحادي المعنى في العلم، فاستعمالها عادة ما يكون مقرونا بنعت يحدّد ما هو المنهج المأخوذ بعين الاعتبار: مناهج كمية كيفية، منهج تاريخي، منهج علمي، منهج تجريبي، أو تحقيق ميداني.

في القرن السادس عشر آذنت العصور الوسطى بالزوال ليبدأ عندها عصر النهضة الأوروبية، وأصبح للعلوم الطبيعية مكان الصدارة من اهتمام المفكرين، فظهرت زمرة من العلماء كجاليليو وكبلر وكوبرنيك ونيوتن، وتقابل زمرة الفلاسفة التي شهدتها عصر اليونان، كما تقابل زمرة رجال اللاهوت والفقهاء في العصور الوسطى، ولكن هؤلاء العلماء كانوا يختلفون عن سابقهم من الفلاسفة ورجال الدين الذين كانوا يبنون العلم على مسلمات، ويعتمدون على المنهج الاستنباطي، ومن هنا كان طبيعياً أن يسلك هؤلاء العلماء طريقاً جديداً جعلوا نقطة البدء فيه مشاهدة ما يجري في الطبيعة من أحداث لاستخلاص قوانينها المطردة.

في هذه المرحلة من تاريخ الفكر الإنساني بدأ التفكير في " علم مناهج البحث" وأخذ المناطقة يعنون بمسألة " المنهج " من حيث هي قسم من أقسام المنطق. وكانت أول محاولة واضحة في هذا السبيل مع بداية عصر النهضة في القرن السادس عشر عندما قام راموس (1515-1572) بمحاولة لتقسيم المنطق إلى أربعة أقسام: التصور والحكم والبرهان والمنهج، وكان راموس أقرب إلى الأدب منه إلى العلم فعنى عناية خاصة بالمنهج في الأدب والبلاغة.

ولم ينته إلى تحديد منهج دقيق للعلوم ولم يهتم اهتماماً كافياً بالملاحظة والتجربة، ولكنه كان صاحب الفضل في لفت النظر إلى المنهج وأهميته مما كان له تأثير كبير في عصره وبعد عصره.

وفي القرن السابع عشر تمت الخطوة الحاسمة في سبيل تكوين المنهج على يد " فرانسيس بيكون " (1561-1626) في كتابه المشهور "الأورجانون الجديد" (Novum Organum) أي " الأداة الجديدة " الذي أطلق عليه هذا الاسم معارضة لأرسطو الذي تسمى مجموعة كتبه المنطقية "الأورجانون".

وضع هذا الفيلسوف في هذا الكتاب قواعد "المنهج التجريب الجديد" الذي يقوم على أساس "القياس". والملاحظة والتجربة التين يتحكّم في سيرهما التفكير العقلي الخالص، لأنّ الملاحظة والتجربة لا تكفيان وحدهما ما لم يتدخل فيهما نشاط العقل.

أعلن بيكون أنّ المنطق الأرسطي مسؤول عن تأخر العلوم الطبيعية، لأنّه لا يفيد شيئاً فالكشف العلمي بحكم منهجه القياسي منهج يراد به الإقناع بحقائق معلومة لا البحث عن حقائق جديدة، وذلك لأنّ النتيجة التي تصل إليها من خلال مقدماتها موجودة بالفعل في هذه المقدمات، وصدقها راجع إلى المقدمات لا إلى الواقع، وهي مقدمات يجب التسليم بها تسليماً لا يجوز معه الشك.

لقد دعا ببيكون إلى الخروج من حدود الحقائق الكلية التي نحملها في أذهاننا، ونظن أنها هي كل ما يمكن الوصول إليه من علم، إلى الطبيعة نلاحظها ونجري عليها التجارب لتتطرق بأسرارها. وكان هذا هو المنهج الفكري الجديد الذي دعا إليه ليحل محل المنهج الفكري القديم.

وأبرز من سلط الضوء على إشكالية المنهج في الفلسفة هو الفيلسوف الفرنسي ديكارت **Descartes (1550-1596)** واضع الهندسة التحليلية، وهو عالم وفيلسوف ورياضي فرنسي، وقف من المنطق الأرسطي موقف سابقه **بيكون وجاليلو** فرفضه وقال أنه لا يمكن أن يكون منهجا عاما إلا إذا كانت المقدمات التي يعتمد عليها بيقينية، ومضى يحاول إثارة الشك حوله حتى يفسح المجال للمنهج الجديد الذي راح يدعو إليه، وهو المنهج الرياضي الذي آمن بأنه هو الذي يصلح لجميع أنواع العلوم على عكس القياس الأرسطي، وسجل آراءه هذه في رسالته "بحث في المنهج" (Discours de la methode).

لقد شغل ديكارت بالبحث عن منهج يصلح لكل العلوم بالرغم من اختلاف موضوعاتها، انطلقا من اقتناعه بوحدة العقل الإنساني، وانتهى إلى أن المنهج الرياضي هو أكثر المناهج ثباتا وأشدّها يقينا، وأنه لو طبق على العلوم الأخرى لبلغت درجة العلوم الرياضية من حيث استقرار النتائج وثباتها، فدعا إلى الأخذ به.

إن إدراك الحقائق عنده ليس مرهونا بشهادة الحواس، بل هو مستند إلى مبادئ المنطق ودها، كما نرى في العلوم الرياضية، إذ يستطيع عالم الرياضيات أن يقيم بناءها النظري كله دون حاجة إلى استخدام حاسة من حواسه في تحقيق قضية أو بيان الصدق في استدلال. وإذا كان الإدراك الحسي قد يأتي مؤيدا لما يدركه الإنسان بعقله الخاص، فإنّ العيان العقلي ليس بحاجة إلى هذا التأييد، وإذا جاء الإدراك الحسي منافيا لما يحكم لبه العقل نسبنا الخطأ إلى الأول لاستحالة أن يخفى الثاني، فالقضية "أنا موجود"-مثلا- صادقة صدقا ضروريا بحكم العقل دون حاجة إلى شهادة الحواس، لأنّ إنكار هذه القضية يتضمن إثباتها.

ويقوم " المنهج الديكارتي " على أربعة قواعد:

- 1- "التوثيق" وهي تفرض على الباحث ألا يسلم بشيء إلا إذا بدا بديهيا في نظر العقل، وهذا يعني أن يحذر الباحث من أي تسرع أو اندفاع أو ميل مع الهوى في الحكم الذي يصدره.
- 2- "التحليل" وهي تفرض على الباحث أن يقسم كل مشكلة يتناولها بالبحث إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء البسيطة الذي تدعو إليه الحاجة لحلها على أكمل وجه.

3- " التركيب" وهي تفرض على الباحث أن يعيد تركيب ما سبق من عناصر أو أفكار جزئية مراعيًا التسلسل المنطقي في ترتيبها، بحيث تكون كلّ فكرة نتيجة لازمة للفكرة التي سبقتها ومقدمة طبيعية توجب الفكرة التي بعدها، حتى تتكامل الأفكار في سلسلة منطقية مترابطة ترابطًا دقيقًا، ويكون هذا الترتيب ترتيبًا تصاعديًا يبدأ بأبسط العناصر وأسهلها معرفة، ثمّ يصعد خطوة بعد خطوة صعودًا متدرجًا حتى يصل إل أشدها تعقيدًا وأكثرها تركيبًا.

4- " المراجعة النهائية"، وهي تفرض على الباحث أن يقوم في النهاية بإحصاء دقيق ومراجعة تامة لكّل جوانب المشكلة وتفصيلاتها المختلفة، حتى يكون على يقين من أنه لم يغفل أيّ جانب منها له أهميته، ولم يسقط أيّ جزئية منها لها قيمتها، وبهذه يأمن الوقوع في الخطأ فيما يصدره من أحكام وما ينتهي إليه من نتائج.

فهدف ديكرت كان في إقامة منهج عام للبحث عن الحقيقة. وقد وجد ضالته في المنهج الرياضي لامتلاكه دقة ويقينية ووضوحًا في البراهين، واعتبره منهجًا شاملًا، لأنّ العقل يستغلّ دقة ووضوح البراهين من أجل التفكير في جميع القضايا التي تواجه الباحث مهما اختلفت طبيعتها.

وهدف المنهج يكمن في توجيه العقل بالكيفية التي تسمح له بأن يصدر أحكامًا صارمة وصادقة على كلّ الموضوعات التي تمثل له. وتتسع تعريفات المنهج لارتباطه بحقول معرفية كثيرة كالفلسفة والعلم والنظرية والإبستمولوجيا.

والمنهج العلمي يعرف بخطة منظمة لعدّة عمليات ذهنية أو حسية بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها. وبالمعنى الفلسفي المنهج هو وسيلة للإدراك وطريقة للحصول على مقابل تمثيل ذهني للموضوع المدروس، لهذا السبب فإنّ أيّ منهج لا ينفصل عن النظرية.

كما يمكن إرجاع كلمة منهج إلى ميدان خاص يتضمن مجموعة من الإجراءات الخاصة بمجال دراسة معين. مثلاً، يملك منهج التحليل النفسي إجراءً للتقصي خاصًا به. وعلى غرار المناهج الأخرى يتطلّب المنهج التاريخي طريقة أو أسلوب معين في تقييم الوثائق المستعملة.

2-المصطلحات القريبة من مصطلح منهج

تتداخل المصطلحات الأخرى المستعملة عادة في العلم وتتقاطع جزئيًا مع مصطلح منهج، لهذا نتحدّث عن المقاربة، قد يقال عن باحث ما إنّ له مقاربة ماركسية، مما يدل على أنّه يستلهم من كارل ماركس (1818-1883)، كما قد يقال عن باحثة ما إنّ لها تناولًا سلوكيًا، أي أنّها تنتسب إلى

مدرسة فكرية هامة في علم النفس تركز على دراسة السلوكيات، ومع هذا، فإن اعتماد هذا الباحث أو ذاك على مقارنة معينة لا يعني بالضرورة اتباعه حرفياً للنظرية المسترشده بها.

وهناك مصطلح **النموذج النظري** الذي يحدّد مجموع التصورات والممارسات التي يهتدي بها الباحثون. وحسب تخصصاتهم والمدارس الفكرية السائدة في مرحلتهم، فإنّ الباحثين لا يستعملون نفس النموذج النظري أو نفس الإطار، وهو مصطلح آخر معادل. يمكن اعتبار النموذج النظري كنموذج أعلى أو مجموعة من المرجعيات النظرية والتطبيقية الخاصة بميدان معرفي معيّن، والتي يشترك فيها، خلال فترة زمنية معينة، الباحثون في هذا الميدان. إنّه يسمح لهم بامتلاك نظرة خاصة حول الواقع وحول الأحداث.

وينبّه النقاد إلى مخاطر تداخل مصطلحات مثل: المذاهب، المناهج، التيارات، المدارس والنظم. ويعمد بعض الدارسين المترجمين إلى ترجمة مصطلح المقاربة بـ " المنهج " كما فعل ترجم كتاب " مقاربات نقدية في دراسة الأدب " Criticale Approaches to literature لديفيد ديفشر الذي وضع له عنواناً آخر هو " مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق " .

والباحثان مؤلفا كتاب " نظرية الأدب " رينيه ويليك وأوستين وارين لم يلتزما باستخدام مصطلح المنهج في الدراسة كلّها، بل استخدموا أيضاً مصطلح المقاربة، ومصطلح الدراسة، ففي الباب الثالث يستخدمان مصطلح المقاربة، أمّا الباب الرابع فلا يقيّدان أصلاً بمصطلح المقاربة أو المنهج، بل يوظفان مصطلحاً آخر هو الدراسة.

3- ثلاثة مناهج نموذجية في العلوم الإنسانية

أ- المنهج التجريبي

يهدف هذا المنهج إلى إقامة العلاقة التي تربط السبب بالنتيجة بين الظواهر والمتغيرات. وإقامة العلاقة بين السبب والنتيجة فإننا نقوم بإجراء التجربة التي يتمّ خلالها معالجة متغير أو أكثر بتغيير محتواه عدّة مرات، ويسمى هذا المتغير بالمتغير المستقل. إنّ هذه العملية تسمح بدراسة آثار المتغير المستقل في المتغير الذي يتلقى تأثيره، والمتغير التابع.

غير أن عوامل أخرى، أو متغيرات خارجية، يمكن أن تتدخل في التجربة الجارية، وتضر بالدراسة الدقيقة لآثار المتغير التابع. هذه العوامل غير المرغوب فيها ربما تكون من أنواع مختلفة: مادية وخارجية، أو مرتبطة بالأشخاص المشاركين في التجربة هم أنفسهم.

ويتطلب المنهج التجريبي أساليب خاصة في تصوّر البحث والقيام به، ويحاصر كلّ بحق ببعض المتغيّرات التي لا بدّ من عزلها عن العوامل الأخرى المحيطة بها. وأكثر من ذلك ينبغي أن تكون هذه المتغيّرات قابلة للقياس، لأنّ الباحث يستعين بالإحصاء في تحليل هذه النتائج.

ب- المنهج التاريخي

يهدف المنهج التاريخي إلى إعادة بناء الماضي بدراسة الأحداث الماضية، معتمداً في الأساس على الوثائق والأرشيف. يتضمن المنهج التاريخي، كأى منهج، مسعى خاصاً. ينبغي على الباحث في بادئ الأمر أن يقوم بجمع الوثائق المتنوعة ثمّ يقوم بتقييمها أو نقدها، ولهذا النقد مستويين، أحدهما خارجي والآخر داخلي.

إنّ المنهج التاريخي ليس مجرد عملية بحث عن الوثائق بل يعتبر أيضاً إجراء لإثبات أصالة الوثائق ولترميزها والحفاظ عليها، ومن جهة أخرى يمكن تطبيقه عند دراسة كلّ أنواع الوثائق مكتوبة كانت أم سمعية، بصرية أو سمعية بصرية والتي يتمّ إنتاجها في ماضٍ قديم أو ماضٍ حديث.

ج- منهج البحث الميداني

يسمح المنهج الميداني بدراسة طرق العمل والتفكير والاحساس لدى المجموعات البشرية. انطلاقاً من تنوّع الاهتمامات، بإمكان الباحث أن يستعمل معظم تقنيات البحث. إنّ أهداف كلّ تحقيق خاصّ هي التي تحدّد هل ستكون الدراسة فيما بعد وصفية، فيما هو الحال في سبر الرأي العام، أو تصنيفه مثلما هو الحال عند القيام بالتعدادات العامة، أو تفسيرية، مثل الدراسة التي تعتمد على طريقة تطبيق الاستمارة، أو فهمية، كما يجري في الدراسات التي تتخذ من المقابلة أو الملاحظة في عين المكان تقنية لها.

4- مناهج البحث الأدبي

في القرن التاسع عشر عرفت أوروبا نهضة في العلوم الطبيعية والتجريبية، راحت تجتذب إليها طائفة من مؤرخي الأدب الذين نادوا بمحاولة تطبيق هذه المناهج على الدراسات الأدبية، وإخضاعها لأساليبها وقواعدها وقوانينها العلمية، وارتفعت ثلاث صحاح داعية إلى التجربة الجديدة.

ارتفعت صيحة " سانت بيف " **Saint Beuve (1804-1869)** تدعو إلى تطبيق قوانين علم النبات على تاريخ الأدب وإخضاع دراسته لمناهجه العلمية، واصطناع أساليب علمائه حين يصنّفون أنواع النبات المختلفة في فصول متميزة تتشابه كلّ فصيلة منها في الدراسات الأدبية عن طريق دراسة

شخصيات الأدباء في جوانبها المختلفة. فإمكان الباحث تصنيف هؤلاء الأدباء في مجموعات متجانسة بعد تحديد الصفات المشتركة. وتصنيفهم في مدارس أدبية تتميز كل مدرسة منها بطابع عام يشترك فيه أفرادها جميعا.

ارتفعت صيحة تين (1828-1893) Taine تدعو إلى تطبيق مناهج التاريخ الطبيعي وما يقرره علماء من تأثير الجنس والزمان والمكان في الكائن الحي، فهذه العوامل تؤثر في الأدب، وفي الفن عامة، فالإنسان صنع الوراثة والبيئة والزمان. كذلك الأدب نتاج للعرق والزمان والبيئة، فلكل عرق صفاته البشرية المؤثرة في طباعه وسلوكه وشخصيات أفرادها، ولكل زمان ظروفه السياسية والاجتماعية والعقلية، ولكل بيئة خصائصها الطبيعية والإقليمية، وهذه العوامل الثلاثة كما تؤثر في الكائنات الحية فتطبعها بطابعها المميزة تؤثر أيضا في الأدب فتمنحه خصائص معينة.

كما ارتفعت صيحة برونيتير Brunetiere (1849-1906) تدعو إلى تطبيق نظرية " دارون" المشهورة في النشوء والارتقاء أو تطور الأنواع، على أساس أنّ الفنون الأدبية- كالكائنات الحية- تخضع لنفس القانون في نشوءها وتطور أشكالها.

وضع برونيتير نظريته الجديدة في تطور الأشكال الأدبية، وطبقها على ثلاثة من فنون الأدب الفرنسي في عصره المسرح والشعر الغنائي والنقد الأدبي، متتبعا طريق نشأتها وتطورها، وانتهى إلى أنها تتخذ نفس الطريق الذي تتخذه الكائنات الحية خاضعة لنفس القانون الذي تخضع له هذه الكائنات في نشأتها وارتقائها وتطور أنواعها.

وقد لاحظ مؤرخو الأدب أنه أقرب إلى العلوم الإنسانية منه إلى العلوم الطبيعية، وأنّ المنهج الصحيح لدراسته يجب أن يستمد قواعده وقوانينه من هذه العلوم الإنسانية لا من العلوم الطبيعية، وأنه لا يجب أن يتجه إلى الدراسات التاريخية والاجتماعية والنفسية وغيرها من الدراسات الإنسانية، لينتفع بما حققته من تقدّم وتطور، وما انتهت إليه من نتائج، وما استخدمته من مناهج، وبدأت تظهر بين مؤرخي الأدب ونقاده اتجاهات جديدة نحو النظريات التاريخية والاجتماعية والنفسية ونحوها مما وصلت إليه مجموعة العلوم الإنسانية، من أجل استخدامها والانتفاع بها في الدراسات الأدبية. وظهرت محاولات قوية لدراسة الأدب من وجهة النظر النفسية أو الاجتماعية أو الجمالية وغيرها من وجهات النظر المختلفة التي تتجه إليها هذه العلوم الإنسانية.

ومن المقرر أنّ المناهج ليست ثابتة، ولكنها في تغيير مستمر مع تطور العلوم وتجدد مطالب العلم وحاجاته المتطورة، فهي قابلة للتطوير والتعديل، فلا يمكن للعلم أن يتقدم أو يتطور إلا في ظلّ حركة دائبة للمناهج تسير حركة العلم المستمرة دائما.

فلا يمكننا حصر كل أشكال المناهج الأدبية التي عرفتھا دراسة الأدب العربي في العصر الحديث، ومن الاتجاهات الكبرى: المنهج التاريخي والتدوين التاريخي، والمنهج الاجتماعي وعلم النفس الأدبي والمنهج الجمالي، الذي كان أشد المناهج الأدبية ذيوعا في دراسة الأدب العربي وأوسعها انتشارا بين الباحثين العرب.

د. واتيكي
كميلة